

محاضرة رقم 09

العلاقة بين الهوية والثقافة:

تعني علاقة الذات بالإنتاج الثقافي ولاشك أن أي إنتاج ثقافي لا يتم في غياب ذات مفكرة. دون الحوض في الجدل الذي يذهب إلى أسبقية الذات بالإنتاج الثقافي حتى لو ارتبط مفهوما الثقافة والهوية بمصير واحد، فليس من السهل خلط أحدهما بالآخر، إذ يمكن للثقافة أن تعمل بدون وعي للهوية. بينما يمكن لاستراتيجيات الهوية أن تعالج الثقافة أو تغيرها.

فالهوية الاجتماعية لا ترتبط بالأفراد فحسب. فكل جماعة تتمتع بهوية تتعلق بتعريفها الاجتماعي وهو تعريف يسمح بتحديد موقعها في المجموع الاجتماعي فمسألة الهوية الثقافية تحيل منطقيا، وللوصلة الأولى إلى المسألة الأوسع، مسألة الهوية الاجتماعية التي تعد الهوية الثقافية إحدى مكوناتها. فالفرد داخل الجماعة الواحدة هو عبارة عن هوية متميزة ومستقلة. عبارة عن أنها آخر داخل الجماعة نفسها، فيمكن للهوية أن تحيل بالضرورة إلى المجموعة الأصلية التي ينتمي إليها الفرد والأصل أو الجذور وفقا للتصور العادي هو أساس الهوية الثقافية أي ما يحدد بشكل أكيد وأصيل.

ثم علاقة وثيقة بين المفهوم الذي تتصوره عن الثقافة وبين مفهومنا للهوية الثقافية. أولئك الذين يعرفون الثقافة بـ "طبيعة ثانية" تأتي بالوراثة ولا يمكننا الهروب منها. يرون في الهوية معطى من شأنه أن يحدد الفرد بشكل نهائي. فالهوية الثقافية هي حجر الزاوية في تكوين الأمم، لأنها نتيجة تراكم تاريخي طويل، فلا يمكن تحقيق الوحدة الثقافية بمجرد قرار حتى لو توفرت الإرادة السياسية.

فالإشكالية المطبقة على الهوية الثقافية يمكن أن تؤدي إلى جعل الأفراد والجماعات عنصريين. وبما أن الهوية محفورة في الإرث الوراثي كما يقول البعض. ففي الدراسة الثقافية نحن لا نستند إلى الإرث البيولوجي، الذي لا يعد حاسما، بل على الإرث الثقافي، وعلى هذا فإن النتيجة تكون نفسها تقريبا، لأن الفرد تبعا لهذه المقاربة مضطر إلى استبطان النماذج الثقافية المفروضة عليه، لأنه لا يستطيع إلا التماهي لجماعته الأصلية، وهنا تعرف الهوية. على أنها سابقة في وجودها على وجود الفرد وتبرز الهوية الثقافية ملازمة للثقافة الخاصة، وبالتالي فإننا نسعى إلى وضع قائمة بالخصائص الثقافية التي يمكن أن تشكل حاملا للهوية

الجماعية، أي هويتها الأساسية الثابتة الهوية الثقافية هي هوية أولية أساسية" لأن الانتماء للمجموعة العرقية هو أول الانتماءات الاجتماعية وأكثرها جوهرية، ففيها تتعدّد أكثر الروابط تحديداً، لأن الأمر يتعلق بروابط قائمة على السلالة المشتركة في كنف الجماعة، يتم تقاسم أعمق المشاعر والتضامات وأكثرها قدرة على تحديد هيكل الجماعة، فهي ليست وهما يتعلق بمجرد ذاتية الفاعلين الاجتماعيين، إن تكوين الهوية يتم داخل الأطر الاجتماعية التي تحدد موقع الفاعلين وتوجّه تصوراتهم وخياراتهم، ومن جانب آخر فإن تكون الهوية ليس وهما لأنه يتمتع بفاعلية اجتماعية وله آثار اجتماعية حقيقية.

ومن خلال هذه التعريف تبدو الهوية الثقافية بمثابة ملكية أساسية لازمة للجماعة. لأن هذه الجماعة تقوم بنقلها عبر أفرادها وإليهم دون الرجوع إلى الجماعات الأخرى، ويكون اكتساب الهوية بمثابة تحصيل حاصل.